إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

« أنا والآب واحد »

(١٠: ٢٢-٤٢)

تأليف: بروس مكلارتي

خلال حياته القصيرة بل والمثيرة، كان الإسكندر الكبير قد سيطر على معظم عالمنا الحاضر. وعندما مات في سنة ٣٢٣ ق.م. عن عمر ثلاث وثلاثون سنة، ترك أمبراطوريته في أيدي قادة جيشه الموثوق بهم. صار أحدهم وهو سليوس الأول حاكماً على سورية وكوّن سلالة سليوس الحاكمة. وبعد سنوات كثيرة جاء أنطيخوس إبيفانيوس أحد أحفاده إلى السلطة وبدأ يوسع نفوذه فاحتل مصر. وبعد سيطرته الناجحة على مصر زحف نحو أورشليم في سنة ١٦٩ ق. م. وعند وصوله هناك، دخل الهيكل ونهب كل ما له قيمة.[١]

ولكن نهب هيكل اليهود لم يكفي أنطيخوس إبيفانيوس. بل أمر بانه يجب على كل الذين في امبراطوريته التخلي عن عادتهم الخاصة وديانتهم ويكونون شعباً واحداً يتكلم اللغة اليونانية، ويعمل بالعادات اليونانية، ويمارس الديانة اليونانية.[٢] ولكي يتم ذلك أمر اليهود ان يكفوا عن تقديم الذبائح لإلهتهم، والتوقف عن ختان أبناءهم، وحفظ السبت. تم تنجيس المذبح الذي في الهيكل، بتقديم الخنازير (وهي حيوانات نجسة لا يقدمها اليهود أبداً ذبيحة لله)، وأُحرق ما وُجد من أسفارالشريعة.[٣] كان ذلك بالحقيقة من إحدى الساعات المظلمة في تاريخ اليهود:

> وبأمر من الملك قُتل النساء اللواتي ختن أولادهن وعلق الأطفالَ المختونون بأعناقهم وقُتل جميع أفراد عائلاتهم والذين ختنوهم. غيرَ أن كثيرين في أرض إسرائيل أصروا على أن لا يأكلوا طعاماً نجساً بحسب الشريعة وفضلوا الموت على ذلك لئلا يدنسوا العهد المقدس. ونزل على شعب إسرائيل غضب عظيم (١ مكابيين ١: ٦٠-٦٤).

من بين اليهود الذين عارضوا ذلك بشدة كان كاهناً اسمه متثيا. لقد عارض هو وأبناءه الخمسة أوامر أنطيخوس إبيفانيوس وأُجبروا على الهروب إلى الجبال. وسريعاً ما وفد الناس من جميع أنحاء البلاد لينضموا إليهم وليعدوا للقتال مع الأشوريون. عندما مات متثيا في سنة ١٦٧ ق. م. صار ابنه يهوذا المكابي قائداً للثورة. وقد انتصر اليهود تحت قيادته على بعض العقبات الأولية وهزم الأشوريين هزيمة نكراء، واستعاد اليهود أرضهم وهيكلهم. عندما نجحوا أخيراً في دفع الأشوريين عن أورشليم،

---

[١] سفر المكابيين الأول ١: ٢١. يحتوي سفري المكابيين (وهما من أسفار الأبوكريفا، أي الأسفار المشكوك في صحة نسبتها إلى الكتاب المقدس) الذي تم كتابتهما في حوالي سنة ١٠٠ ق. م. على احداث تاريخية وقعت في الفترة ما بين العهد القديم والعهد الجديد. ويتركز كل من الكتابين على قمع الثقافة والتقاليد والديانة اليهودية في فلسطين ونضال اليهود من أجل الاستقلال في حوالي سنة ١٦٦-٤٠ ق. م. {جميع الآيات المقتبسة هنا من سفر المكابيين الأول مأخوذة من الترجمة العربية الجديدة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس في لبنان. طبعة سنة ١٩٩٣. جميع الحقوق محفوظة للناشرين}.

[٢] سفر المكابيين الأول ١: ٤١.

[٣] سفر المكابيين الأول ١: ٥٦.

كان أول ما قاموا به هو تطهير الهيكل الذي تم تدنيسه من قبل أنطيوخس إبيفانوس. «وقال يهوذا وإخوته: ها أعداؤنا انحدروا، فهيا نصعد الآن إلى أورشليم لتطهير الهيكل وإعادة تدشينه» (١ مكابيين ٤: ٣٦). عندما تم تطهير وتجديد الهيكل، قرر يهوذا وإخوته ان يحتفل الشعب في كل سنة بعيد تجديد الهيكل لمدة ثمانية أيام. صار عيد التجديد هذا وقتاً تحتفل فيه إسرائيل بتحريرهم وبذكرى تجديد الهيكل ومذبح الله. يسمي الشعب اليهودي هذا الاحتفال اليوم بـ«هانوكه».

بعد مرور مائتي عام من أول عيد التجديد، جاء يسوع إلى الهيكل في أورشليم ليشارك في هذا الاحتفال. وفي تلك المناسبة تكلم يسوع بجرأة عمن كان هو ولماذا جاء. كما كانت هذه حقيقة في الجزء الأول من الأصحاح العاشر من إنجيل يوحنا، كلما تكلم يسوع كلما ازدادت الحالة حدة. استمر يسوع يجبر مستمعيه أن يتخذوا قراراً بخصوصه، فامن البعض به، بينما لم يؤمن أخرون (بالاخص قادة اليهود)، إلا انهم ازدادوا غيظاً لكل كلمة كان يقولها. في المواجهات المدونة في هذا النص (١٠: ٢٢-٤٢)، ذكر يوحنا ثلاثة من التهديدات التي قام بها معارضو يسوع ورد فعله عليها.

احاطوا به (١٠: ٢٢-٣٠)

بينما كان يسوع سائرا في الهيكل في الجزء الذي يسمى رواق سليمان، «... احاط به اليهود» (١٠: ٢٤). تظهر الكلمة اليونانية التي ترجمت هنا إلى «احاط به» أربع مرات فقط في العهد الجديد.[٤] واستخدمت في اثنين من هذه المناسبات لوصف جيش احتلال في عملية احاطة وحصار مدينة محصنة. أحاط بيسوع معارضوه اليهود كنسور تستعد لنزع اللحم من عظامه. لم يكن ذلك التفاف الاصحاب من حوله، بل كان محاصرة من قبل أسوأ الأعداء!

أصر قادة اليهود غير المؤمنين ان يعلن لهم يسوع عما إذا كان هو المسيح أم لا. فأحاطوا به وظلوا يسألونه قائلين: «إلى متى تُعلّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً» (١٠: ٢٤). تصاعدت الحدة بين يسوع والذين أرادوا أن يهلكوه.

قد يبدو في أول وهلة بانه كان يجب على يسوع ان يجيب مباشرة على سؤالهم. ولكن هناك بعض الأسئلة التى لا يمكن الإجابة عليها بكلمة «نعم» أو «لا». كان سؤالهم هذا مثل السؤال: «هل تركت الكذب؟» إذا أجبت بـ«نعم» يعني انك اعترفت بانك كنت تكذب من قبل. وإذا أجبت بـ«لا» فيبدو بانك مازلت تكذب! يجب الإجابة على مثل هذا السؤال بتفسير كامل عوضاً عن مجرد الإجابة بـ«نعم» أو «لا». في أيام يسوع، كان للناس افكارا مختلفة عمن يكون «المسيح». لو قال لهم يسوع: «نعم، أنا هو المسيح»، لكان الذين يتوقعون «المسيح» ان يكون قوياً وملكاً دنيوياً مثل داود أو سليمان فشلوا في فهم ذلك. ولو قال «لا»، لكان قد أنكر حقيقة اساسية عن نفسه. بهذه الورطة أجاب يسوع، وبعبارة يفهمها الباحث الحقيقي عن الله دون أن يعطي لمنتقديه أي شيء يستخدمونه ضده. استخدم مثل الراعي والخراف، كما كان قد استخدمه سابقاً في الأصحاح العاشر من إنجيل يوحنا عندما قال: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني» (١٠: ٢٧).

قال يسوع في موضع آخر بان الناس إذا «طلبوا، وقرعوا» «سيأخذون، ويجدون، ويُفتح لهم» باب الإيمان (متى ٧: ٧ و٨). يشمل الإيمان على عقل بل وأكثر من عقل. القلب المفتوح والطاعة من ضروريات تطوير الإيمان.

وبعد ذلك، وبينما كان قادة اليهود المنتقدين والغاضبين يحيطونه قال يسوع شيئاً جعلهم أكثر اهتياجاً. إذ صرح قائلاً: «أنا والآب واحد» (١٠: ٣٠). الكلمة «واحد» هنا تشير إلى «شيء واحد»، اي ان يسوع والآب واحد. كان يصرح بعبارة جريئة مرة أخرى عن ألوهيته، مدعياً بانه بالحقيقة ابن الله. رغم انه كان

[٤] لوقا ٢١: ٢٠؛ يوحنا ١٠: ٢٤؛ أعمال ١٤: ٢٠؛ عبرانيين ١١: ٣٠.

محاط بمعارضيه إلا انه رفض التراجع عن هذه الحقيقة الهامة عن هويته.

تناولوا حجارة (١٠: ٣١-٣٨)

ادعاء يسوع بانه واحد مع الآب كان أكثر بكثير مما استطاع قادة اليهود تحمله. فبدأوا يحملون الحجارة (١٠: ٣١)، لأنهم كانوا قد اهتاجوا بما فيه الكفاية ليرجموه حالاً في الهيكل! وإذ كانوا مقتنعين بان في كلام يسوع هذا تجديف ظنوا بانه يحق لهم أن يفعلوا ما كانوا يفعلونه، مع ان الحجارة كانت بأيدي متهميه، إلا ان يسوع استمر يسرد حقائق ادعاءاته بانه ابن الله.

وعندما أشتد الجدل حدة قال يسوع لمنتقديه: «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي، بسبب أي عمل منها ترجمونني؟» (١٠: ٣٢). فأجابوا قائلين بانه لم يكن بسبب أعماله يريدون قتله بل بسبب التجديف. كان قادة اليهود قد افتهموا على الأقل تأثير ما كان يقوله يسوع. وقالوا: «... فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (١٠: ٣٣). إذا كان يسوع مجرد إنسان لكان ما يقولونه حق. ولكنه كابن الله كان لديه كل الحق وكل سبب ليدعي بهذه الادعاءات. واجهة يسوع منتقضوه بتحدي من كلمات المزمور ٨٢: ٦ حيث كتب صاحب المزمور: «إنكم آلهة» وقدم حُجّة منطقية بانه إذا قالت الأسفار المقدسة هذه عن الذين عاشوا في الزمان الماضي، فلا يكون مخطئاً باستخدام مثل هذه اللغة نفسها، قال بانه هو الذي «قدسه الآب وأرسله إلى العالم» (١٠: ٣٦).

يقدم يوحنا يسوع وهو لا يلين بخصوص الادعاءات التي قالها عن نفسه. رغم ان الناس كانوا في حالة اهتياج وما زالت الحجارة في أيديهم، استمر يسوع في ما كان يقوله. قال لهم ان ينظروا إلى أعماله ليروا ما إذا كانت أعمال الآب. أصر على قوله بانه إذا كان يعمل عمل الآب، فينبغي عليهم ان يؤمنوا به عندما قال: «أن الآب فيّ وأنا فيه» (١٠: ٣٨). كان القصد من كل هذا واضحا لكل من كان حينها في الهيكل؛ كان يسوع يدعي مرة أخرى بانه ابن الله! لم يمنعه التهديد بالرجم من قبل الجموع من قول الحقيقة عن نفسه.

فطلبوا أيضاً أن يمسكوه (١٠: ٣٩-٤٢)

حاول منتقدو يسوع ان يمسكوه ولكنه أفلت منهم وأصبح هو «الفائز» في مناظرة أخرى مع قادة اليهود. استمر يسوع يظهر بانه يضع حياته في الوقت الذي يختاره هو، وليس في الوقت الذي يختاره معارضوه(١٠: ١٧ و١٨). لم يذكر لنا كيف أفلت يسوع ولكنه «خرج من أيديهم» (١٠: ٣٩).

وبعد المواجهة في الهيكل، عبر يسوع نهر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه. هنا انتهت معظم خدمة يسوع التبشيرية العامة في أورشليم. كانت ادعاءاته واضحة، وتم رسم خطوط المعركة القادمة. كان الناس منقسمين جداً في أمر يسوع. كان البعض يعتبرونه ابن الله، وكان يبدو لآخرون كأنه إبليس قادم من الجحيم.

وجاء إليه كثيرون في عبر الأردن. كان هذا عمل إيمان من جانبهم. قالوا: «إن يوحنا لم يفعل آية واحدة. ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقاً» (١٠: ٤١). يوضح كلامهم بان يوحنا لم يفعل أية آية، في تباين مع يسوع الذي أجرى آيات كثيرة. وانه ذات أهمية ان نرى بان الكلمة الخاصة التي يستخدمها يوحنا {كاتب هذا الإنجيل} لتدل على «آية» تظهر هنا في الآية ٤١ لأول مرة في الأصحاح العاشر. سميت معجزات يسوع في وقت سابق من هذا الأصحاح بـ«أعمال» لأنها لم تنتج إيمان في قلب الذين رأوها. ولكن عندما تم وصف الإيمان بيسوع في الآية ٤١، ظهرت الكلمة «آية» مرة أخرى.

خلاصة تلك الأحداث الواردة في الأصحاح العاشر هي ان كثيرون آمنوا به هناك (١٠: ٤٢). عندما يستعيد زوجين لذكرى مرور خمسونعاما على زواجهما، يتذكران الوقت السعيدالذي قضياه معاً، ويتذكران المعاني المتعددة لقول: «أحبك»، هكذا أيضاً فان قارئ إنجيل يوحنا

يلاحظ بان العبارة: «فآمن كثيرون» قدتكون ذات معاني مختلفة إذ يستمر الكشف عن قصة يسوع.

عند هذه النقطة من إنجيل يوحنا، بدأ الذين يؤمنون بيسوع يفهمون بان ما يحتويه الإيمان الحقيقي من معني هو ان يسوع هو المسيح ابن الله. كانوا قد ادركوا أيضاً بان ثمن هذا الإيمان قد يكون النزاع، والانشقاق، وحتى التهديد بالقتل. نراهم في نهاية هذا الأصحاح في البرية مع مجموعة من المنبوذين، يتبعون الذي أمنوا به.

مع ان يوحنا كان قد قدم فكرة عن كم يمكن للإيمان ان يكون مكلفاً، إلا ان رسالته كانت مشجعة في الوقت نفسه. كان يريد لنا ان نفهم باننا نحن كمؤمنين بيسوع سيتم معارضتنا. ولكن لا يجب ان تدهشنا المعارضة ولا تحطم عزمنا. وأيضاً يجب على المثال الذي أظهره يسوع ان يقف ثابتاً على الحق الذي نؤمن به – حتى وإن اضطهدنا. كانت استجابته الدائمة للمعارضة الشديدة هي بان يقول الحق، وينبغي أن نفعل بالمثل.

الخلاصة

حدث كل هذا خلال عيد تجديد الهيكل. عندما ظهر يسوع في هذا العيد للاحتفال بتحرير الله لشعبه، تعامل معه هؤلاء الناس كأنه مجدف شرير. كان قادة اليهود يرونه كإنسان خطير ومنشق شرير. لم يدركوا بان يسوع كان على وشك أن يمضي إلى الصليب لكي يعطي خلاص حقيقي. لم يعرفوا بانه كان سيسفك دمه (وليس دم حيوانات) لتطهير شعبه. لم يقدّروا الحقيقة ان ابن الله الذي بلا خطيئة وحملَ الله الذي لا عيب فيه هو الذي يحاولون قتله في ذلك اليوم. يمكن ان نرى هذه الحقائق اليوم من حيث نحن الآن، ونعلم بانها صلب الإنجيل!

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧